التناص الديني
في مقالات أحمد حسن الزيات

religious intertextuality in the essays

of ahmed hasan al - zayyat

الباحث

م.م. عثمان فاهم عبدالأمير الحيدري

Othman fahem abdulameer alhaideri

التدريسي في الجامعة العراقية - كلية العلوم الإسلامية

07710334670

الملخص

يعد التناص الديني مرجعًا مهمًّا من مرجعيات المبدع بصورة عامة، يلجأ إليها الأديب ليستقي منها كثيرًا من تقنيات الأسلوب والصورة والألفاظ، وهذا الأمر ساعد المتلقي على فهم خلفية النص، بوصف القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مرجعيْنِ عامَّيْنِ لجميع المسلمين.

يتضح من خلال ماتقدم أن توظيف الزيات لمرجعية القرآن في مقالاته ساهم في أثراء تلك المقالات، لا سيما أن توظيف تلك المرجعيات يعد من أنجح الوسائل؛ وذلك لخاصية جوهرية في تلك النصوص تلتقي مع طبيعة الأدب نفسه، فالزيات كغيره من الأدباء شكلت المرجعية الدينية المتمثلة بالقرآن الكريم جزءًا من ثقافته وتجلت في مقالاته في كتاب وحي الرسالة.

Summary:

Religious referencesarementioned as an important reference for the creator in general, to which the writer resorts to draw many techniques of style, image and words, and this matter helped the recipient to understand the background of the text, by describing the Holy Qur'an and the Noble Prophetic hadith as general references for all Muslims.

It is clear from the foregoing that Al - Zayat's use of the Qur'an's reference in his articles contributed to the enrichment of these articles, especially that employing of these references is one of the most successful means; This is due to an essential feature in these texts that meets the nature of literature itself. Al - Zayat, like other writers, formed the religious reference represented in the Holy Qur'an as part of his culture and was manifested in his articles in the book The (Wahy Al Rissala).

مقدمة البحث

يعد التناص الديني مرجعًا مهمًّا من مرجعيات المبدع بصورة عامة، يلجأ إليه الأديب ليستقي منه كثيرًا من تقنيات الأسلوب والصورة والألفاظ، وهذا الأمر ساعد المتلقي على فهم خلفية النص، بوصف القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مرجعيْنِ عامَّيْنِ لجميع المسلمين، وهذا ما قاله ابن الصيرفي عندما تحدث عن صفات الكاتب: «ويجب أن يكون حافظًا لكتاب الله تعالى، أو قيِّمًا بقراءته إذا قرأه فإنه شديد الحاجة إليه كما تقدم بيانه، ويكون حافظًا لأخبار الرسول والأئمة من ذريته صلى الله عليهم أجمعين، قيمًا بها أو بأكثرها»(١)، وهذا ما أكده ابن الأثير بأن على الكاتب أن يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وقراءته، وكثيرٍ من السيرة النبوية، وعدة من دواوين الشعراء. . . ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة(٢).

يتضح من خلال ما تقدم أن توظيف التناص الديني في الأدب يزيد من إثراء النصوص الأدبية، لا سيما أن توظيف تلك المرجعيات يعد من أنجح الوسائل؛ وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص تلتقي مع طبيعة الأدب نفسه، «فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينيًّا أو شعريًّا، وهي لا تمسك به حرصًا على ما يقوله فحسب، وإنما على طريقة القول وشكل الكلام أيضًا»(٣)، لذلك حظيت المرجعيات الدينية باهتمامٍ بالغٍ من الباحثين والدارسين في شتى المجالات.

إن المرجعية الدينية تتصل اتصالًا مباشرًا بثقافة الأديب، وترتبط بالنفس الإنسانية، بما تحمله من أسرار وتأويلات، والزيات كغيره من الأدباء شكلت المرجعية الدينية جزءًا من ثقافته وتجلت في مقالاته وحافظته الدينية، لذلك سأقوم في هذا البحث بدراسة المرجعية الدينية المتمثلة (بالقرآن الكريم).

(١) - قانون ديوان الرسائل: أبو القاسم على بن منجب (ابن الصيرفي)، علق عليه علي بهجت، القاهرة، مطبعة الواعظ، الطبعة الأولى، ١٩٠٥م، ص ١٠٢.

(٢) - ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ت: محمد محي الدين، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٥م، ج٢، ص ١٠٠.

(٣) - إنتاج الدلالة في شعر أمل دنقل: صلاح فضل، القاهرة، مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٠م، ص ٢٣٠.

يعتمد البحث على منهج (النقد الثقافي)، فهو يدرس النص من حيث علاقته بالأيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية، ويقوم بالكشف عنها وتحليلها عبر تحديد المرجعيات الثقافية، ودراسة كيفية توظيف هذه المرجعيات في النص، وهو ما استلزم العناية بقراءة النص في ضوء صلته بخارجه، والحرص على معاينة جمالية الصلة وانعكاسها داخل النص. بيد أن جميع ما تقدم لا يعني أن الإفادة من المناهج الأخرى تكون مستبعدة، لذلك يبقى الاعتماد على بعض الأدوات الإجرائية للمناهج الأخرى واردًا كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

قبل الولوج في قراءة تلك المرجعيات لا بد لنا من وقفة لمعرفة معنى التناص وطريقة اكتساب الزيات لهذه المرجعيات الثقافية.

بعد انطلاق من المحاولات بتعريف مفهوم النص وبعد تناول النقاد للنص بمفهومه الجديد كان لابد أن يظهر مفهوم جديد يتصل بالنص وهو التناص.

التناص لغة:

ترد كلمة التناص في لسان العرب بمعنى الاتصال أو تواصيها أي يتصل به. وهي تعني الانقباض: انقبض أي أنزحم القوم. وبناء على ذلك فالتناص مفيد للنصوص الادبية في العصر الحديث حتى لا تتداخل وتزدحم فيما بينها. (١)

التناص اصطلاحًا:

هو العلاقة التي تربط نصًّا أدبيًا بنصٍّ آخر أو استحضار نص أدبي داخل نص أدبيّ آخر، وهو مُرتبط بوجود علاقات بين النصوص المُختلفة، ويقوم على فكرة عدم وجود نص بدأ من العدم فكلّ نص موجود هو مُعتمد في وجوده على نص آخر إمّا في الفكرة وإما في استخدام التراكيب والألفاظ. (٢)

فالمرجعية الدينية بجميع أنواعها (القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف، الشخصيات الدينية، السيرة النبوية)تعد من أهم المرجعيات وأخصبها عند الكتَّاب والمبدعين، ذلك أن الدين يرتبط بحياة الناس اليومية أشد ارتباط، كذلك يمثل عاملًا أساسيًا في تشكيل الإرث الثقافي للأمة، فالزيات لم يكن بمنأى عن ذلك التأثير، لاسيما وقد نشأ نشأة دينية خالصة،

(١) - ينظر: معجم المصطلحات الادبية: سعيد علوش، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥م، ص٢١٥

(٢) - ينظر: معجم المعاني: عبدالعزيز عتيق، بيروت، دار النهضة العربية: ٢٠٠٩م ط١

وعلى عادة أهل القرى المصرية يلحقون أولادهم إلى الكُتَّاب ليتعلموا قراءة القرآن وحفظه، وينهلوا من العلوم الدينية.

من المعلوم أن الزيات دخل الكتَّاب وهو ابن الخامسة من عمره، واستمر فيه حتى أكمل العاشرة، ففي هذه المدة أتم حفظ القرآن الكريم وتعلم قراءة القصائد الدينية(١)، وكانت له حظوة ومكانة خاصة عند الشيخ حسن فقيه الكتاب؛إذ يقول: «كانت لي الحظوة عند (سيدنا) من دون أولاد الكتاب؛ لأني كنت أسمّع له البردة، وأكتب له الحجاب الغالي، وأرسم الخاتم الدقيق على ركب التلاميذ عصر الخميس حتى لا يستحموا في النهر يوم الجمعة»(٢).

عندما أتم الزيات حفظ القرآن الكريم أرسله أهله إلى بلد (الربع)، وهي إحدى قرى محافظة الدقهلية؛ ليتعلم تجويد القرآن والقراءات السبع على يد شيخ آخر، وأتم ذلك في عام واحد(٣)، يقول الزيات: كان ذلك وأنا في الحادية عشرة من عمري حين حفظت القرآن وأتقنت القراءة وجودت الخط استعدادًا للانتساب إلى الأزهر. والأزهر وقتئذ هو المعهد العلمي الذي لا يعرف الريفيون غيره (٤).

التحق الزيات بالأزهر الشريف ليكمل مشواره في اكتساب الثقافة الدينية هناك، إذ يعتبر مركز الإشعاع الروحي عندما كانت الثقافة الدينية هي السبيل الأول للعلم في مصر آنذاك، وكان دخول الأزهر يعد مصدر شرف كبيرًا للعائلة الريفية حتى أصبحت نظرة الفلاحين إلى من دخل الأزهر الشريف نظرة إجلال وتكريم، وذلك بسبب ارتباط الأزهر بالدين ولما للدين من شغف وسلطان في قلوب الفلاحين المصريين(٥)، للأزهر مكانة كبيرة في قلب الزيات، إذ يصفه بأنه العقل الذي حفظ الثقافة العربية ألف سنة ونيفًا، ويسهر عليها ويزيد فيها وينفق منها على طلاب المعرفة في الشرق والغرب، على حين دمر الجهل والكفر حصونها في بغداد والأندلس، ويعُد الأزهر الحصن الذي اعتصمت به اللغة العربية من عدوان الشعوبية والعامية والتركية حين استعجم اللسان واستترك السلطان وفشت الجهالة وضعفت الخلافة وعز الناصر وذل الأهل، ويعني الأزهر

(١) - ينظر: قمم أدبية: نعمات أحمد فؤاد، مصر، عالم الكتب، ١٩٩٦م، ص ١٩٦.
(٢) - وحي الرسالة: أحمد حسن الزيات، مصر، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٢م، ص١٩٣.
(٣) - ينظر: قمم أدبية ص ١٩٦.
(٤) - ينظر: في ضوء الرسالة: أحمد حسن الزيات، مصر، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٣م، ص١.
(٥) - ينظر: الزيات والرسالة: محمد سيد محمد، الرياض، دار الرفاعي، ط١، ١٩٨٢م، ص ١٥.

فيما يعني القبلة الثانية التي يوجه المسلمون في جميع أقطار الأرض قلوبهم إليها يتلمسون على هداها الطريق إلى الحق والسبيل إلى الله[١]، لذلك يعتبر الأزهر الشريف احد الأركان المهمة في ثقافة الزيات الدينية.

هذا يدلنا على أن فترة بقاء الزيات في الأزهر الشريف كانت من أخصب فترات حياته التي أثرى فيها ثقافته الدينية، فمثلت تلك الثقافة دالًّا مرجعيًّا مهمًّا في مقالات الزيات، إذ استطاع أن يجذب انتباه القارئ ويثير فيه الإعجاب والتأمل من خلال توظيفه لتلك النصوص الدينية، فكان الاعتماد على القرآن الكريم هو الأبرز من حيث التوظيف الثقافي الذي عمد إليه الزيات في كتابة مقالاته، فقد كانت تلك المرجعيات مهيمنة على مقالاته في إضفاء الصور وإعطائها الحيوية بفاعلية عالية، ذلك بعد أن أظهر أهل العلم عما تحتوي عليه تلك المرجعيات من ثورة فكرية وفنية مرتبطة كل الارتباط بطبيعة العقل البشري؛ لذا فهي تشمل كل مظاهر العقائد الدينية التي تمثل القيم المستخلصة من أصل الدين، وتشمل أيضًا الطقوس والشعائر التي تحتوي على المضمون الديني، والتي تفصح عن ممارسات خاصة يرتبط بها الإنسان مع العالم الروحي[٢]، ولهذا تعد المرجعية الدينية المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشخصيات الدينية من أبرز المرجعيات التي تؤثر في النصوص العربية بشكل عام، وفي مقالات الزيات بشكل خاص، حتى وصفوه بأنه كاتب إسلامي غيور، وقد تجلى في كثير من المواقف صدق إيمانه، وقوة عقيدته، وغيرته على الإسلام، وحسبه أن جعل من الرسالة منبرًا لمناهضة أعدائه، والتعظيم بمبادئه وتاريخه المجيد، بل حسبه أن كان كما ذكرنا يغتنم كل مناسبة دينية ويتناولها بقلمه البليغ[٣].

استنتج من ذلك أن قضية المرجعيات الدينية لها فاعلية كبيرة في ذوات الناس، فهي تنظم حياتهم تنظيمًا مؤثرًا خفيًا، كذلك تسهم في عملية إنتاج النصوص الأدبية.

(١) - ينظر: في ضوء الرسالة: ص ١٥٣.

(٢) - ينظر التراث الديني في شعر بدر شاكر السباب: مريم عبد النبي عبد المجيد، العراق، مركز دراسات الخليج العربي، مجلد (٣٧) العدد (١ - ٢)، ٢٠٠٩م، ص ١١٧.

(٣) - ينظر: الزيات صاحب الرسالة: محمد نبيه حجاب، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط١، ١٩٩٨م، ص ٣٨.

القرآن الكريم:

لقد كان القرآن الكريم أحد أهم الروافد الثقافية للأديب العربي سواء كان شاعرًا أو ناثرًا، يمده بالصور والمعاني والتشبيهات المتميزة، وأدرك الأدباء العرب، ومن بينهم الزيات، ما حملته لغة القرآن الكريم من بيان وبلاغة وروعة في التعبير أضفى على الألفاظ العربية معاني ومدلولات عميقة، وبهذه الدلالات الجديدة التي اكتسبتها الألفاظ العربية المستعملة في القرآن الكريم بدت وكأنها ألفاظ جديدة في حياة اللغة العربية، فدخلت هذه الألفاظ ضمير الفكر العربي، فاستعملها العرب تأثرًا بأسلوب القرآن في أشعارهم ومقالاتهم وخطبهم ورسائلهم(١).

يعدُّ القرآن الكريم من أكثر النصوص تأثيرًا في لغة العرب وأدبهم قديمًا وحديثًا، وأحدث انعطافًا كبيرًا في تفكيرهم ونظرتهم للأشياء، وكان للشعراء والأدباء العرب قصب السبق في تعاملهم مع نصوص القرآن الكريم ومفرداته؛ كلٌّ حسب مقدرته الشعرية واللغوية، ومدى تعمقه في فهم القرآن الكريم والإدمان على قراءته واستلهام معانيه، كما أنه الكتاب الذي تمت له الصدارة على كل ما أنتج العرب وينتجون من بلاغة وأدب، والذي هو في الوقت نفسه قانون الحياة والمصدر الأول للتشريع، ومن الطبيعي أن تتجه أذهان المسلمين أول ما تتجه إلى العناية بهذا النص(٢)؛لأن القرآن يمثل المنبع الرئيسي للثقافة الدينية، فهو يغذي ويمد العقل البشري بصورة عامة والأدباء والشعراء بصورة خاصة بالنصوص التي تثري نتاجهم الإبداعي أو نصوصهم الأدبية، فالقرآن الكريم يعد الأساس الذي ارتكز عليه الكثير من الأدباء، وتضطلع الأديان في تشكيل الفكر الإنساني وتكوين ثقافته، وعلى قدر انغماس الأديب أو الكاتب في استلهام معاني القرآن تتكشف لنا قدرته في توظيف تلك المرجعيات في نصه، ذلك لأن القرآن الكريم يعُد نصًا لغويًا ذا أهمية كبيرة ويمثل في تاريخ الثقافة العربية نصًّا محوريًّا، وليس من قبيل التبسيط أن نطلق على الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة النص، بمعنى أنها حضارة انبتَّتْ أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز (النص) فيه(٣).

(١) - ينظر: أثر القرآن الكريم في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: ابتسام مرهون الصفار، بغداد، مطبعة اليرموك، ١٩٧٤م، ص ١٧ - ١٨.

(٢) - ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي: محمد زغلول سلام تقديم: محمد خلف الله، القاهرة، دار المعارف، د. ط، ص ٧.

(٣) - ينظر: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، المغرب، المركز الثقافي العربي، ص٩.

يتبين لي إذن أن القرآن الكريم منذ بدء الحياة الإسلامية أخذ مكان الصدارة، وهو النص الديني والثقافي الأول لهذه الأمة، والكتاب المعجز، إلى جانب كونه وحي السماء، وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك، والمرشد الموجه إلى معالي الأمور، وإذا ائتلفت هذه الظروف في كتاب فمن الطبيعي أن يصبح محورًا لأهداف الفكر والتأليف في الأمة، وينبوعًا لثقافتها(١)، لذلك وصفه الراغب الأصفهاني بأنه «لب كلام العرب وزبدته، وعليه اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليه مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم»(٢). لذلك عني الأدباء باختيار ألفاظهم ليكون لها صدى عميق في أسماع المتلقين ونفوسهم، فنجد الزيات يدعو إلى أن الالتزام بالقرآن الكريم وسنة النبي الكريم هو السبيل الوحيد للنجاة في الدنيا، فيقول: «وإن لنا دستورًا إلهيًّا كاملًا، فيه لكل مضلة هدى، ولكل قضية بينة، فإذا التمسنا دليلنا من روح السلف، واقتبسنا هدانا من وحي الله، استقمنا على الطريقة التي نهجها الرسول فتوافينا معًا على الغاية، وانتهينا جميعًا عندها إلى الوحدة»(٣)، ولو دققنا النظر في هذه المقالة للزيات لوجدنا أن المعنى بصورة عامة هو امتداد لقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)(٤)، وقوله تعالى: (هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(٥)، وقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)(٦)؛ فالواجب على الأمة التمسك بالقرآن الكريم، والعناية به، وتدبر معانيه، والإكثار من تلاوته، كذلك الالتزام بسنة نبينا الكريم، والسير على منهاجه.

وظف الزيات كثيرًا من التعابير، والتراكيب القرآنية، التي أصبحت بمنزلة المعجم اللغوي والمرجعية الثقافية التي استند إليها الزيات في كتابة مقالاته، إضافة إلى إشارة هذه التعابير والألفاظ إلى معاني الآيات التي وردت فيها، ولعل أهم الأسباب التي جعلت الكتاب والشعراء ينهلون من القرآن الكريم ويوظفونه في نصوصهم هو التأثير الكبير على نفسية المتلقي؛ لكون القرآن الكريم

(١) - ينظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي: ص ٨.
(٢) - المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كبلاني، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٨م، ص ٤.
(٣) - وحي الرسالة: ص ٢١٢.
(٤) - الإسراء: ٩.
(٥) - الأنعام: ١٥٥.
(٦) - الأحزاب: ٢١.

هو من أكثر النصوص التي يستشهد بها المسلمون ويحدث الطمأنينة في نفوسهم(١).

لقد كان الزيات على تماسٍّ مباشر مع القرآن الكريم؛ لأنه أول ما تعلمه منذ الصغر، وهذا ما أشرنا إليه سابقًا، ومن هنا تنوعت أساليب الزيات في توظيف القرآن الكريم في مقالاته بصورة فنية أسهمت في استيعاب الثقافة القرآنية، ومن خلال استقرائي لمقالات الزيات في (وحي الرسالة) تبين لي أن توظيفه لمرجعية القرآن الكريم جاء على وجهين:

الأول: إيراد الآيات القرآنية الكريمة بنصها ولفظها.

الثاني: إيراد معنى الآية أو لفظ منها أو ذكر القصص القرآني.

ففي الوجه الأول يعمد الزيات إلى توظيف آية من القرآن الكريم، وإدراجها في مقالاته لتعطي المقال رونقًا خاصًّا ودلالة جديدة؛لأن الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسَّها رَحِمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج فهو «يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في وليد أكثر ما يمكن من المعاني. أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله: يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواقع تفصيله التي يسمونها مقام الأطناب، ولذلك نسميه إيجازًا كله، لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف ميلًا ما»(٢)؛نتيجة لذلك كله وللبرهان القوي الذي يمتاز به القرآن الكريم عن غيره من النصوص، نلاحظ أن الزيات استعمله في مقالاته ووظفه في علاج كثير من قضايا المجتمع الدنيوية، من خلال تقنية الاقتباس والتضمين.

فالاقتباس «هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية في الكلام، تزيينًا لنظامه وتفخيمًا لشأنه»(٣)، استُنتج من ذلك أن الاقتباس معناه الآخذ والاستفادة من آي القرآن الكريم، وقد عرف هذا اللون منذ زمن طويل وكانوا يطلقون على الخطبة التي لا توشح بالقرآن الكريم بتراء(٤).

يرى الدكتور محمد عبد المطلب أن تقنية الاقتباس تتيح للمبدع أن يحدث انزياحًا في أماكن محدودة من خطابه، بهدف إفساح المجال لشيء من القرآن الكريم أو الحديث النبوي(٥),وكذلك

(١) - ينظر: سلطة النص: عبد الهادي عبد الرحمن، القاهرة، سيتا للنشر، ط١, ١٩٩٨م، ص ١٠٩.

(٢) - النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، الكويت، دار القلم، د. ط، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٣) - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الرازي، تحقيق: نصر الله جاحي، بيروت، دار صادر، ط ١, ٢٠٠٤م، ص١٧٣.

(٤) - ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، العراق، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول, ١٩٨٣م، ص ٢٧٠.

(٥) - ينظر: قراءة أسلوبية في الشعر الحديث: محمد عبد المطلب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٥م،

أن توظيف المرجعية الدينية في الأدب يجعل النص حجاجيًّا بالغ الإقناع لدى المتلقي[١].

نستنتج من ذلك أن الاقتباس القرآني، ظاهرة تغني دلالة النصوص الأدبية، ويوظفها الزيات في مقالاته ليكشف لنا مخزونه الثقافي وخبراته المعرفية.

تعد المرجعية الثقافية الدينية عند الزيات من الركائز الأساسية التي ينطلق منها وينتهي بها في كثير من مقالاته، موظفاً إياها في عدة محاور، حيث ناقش في كل محور عدة قضايا منها: - ١ - المحور السياسي:

يتجلى أثر القرآن الكريم في هذا المحور بوضوح عند الزيات، من خلال مناقشته لعدة قضايا، مقتبسًا أية قرآنية مضمنها في مقالته، ومن تلك الاقتباسات تناول الزيات موضوع (قانون التصمينات) ذلك القانون الجائر الذي وضع لإخراج الانكليز من وظائف الدولة بالتعويض، فانتقد رجال السياسة ورجال الدين وحتى أولئك الضعفاء الذين وافقو على ذلك المشروع، فاستعان بآية من القرآن الكريم تصف حالهم فيقول: «يقول كل عالم هذا الكلام، ويهتم هذا الاهتمام، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلاً ودليلاً. . . كلكم إلى يلوم فمن الملوم؟ وكلكم يتهم فمن المجرم؟» [٢] فوظف هنا قوله تعالي «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [٣] ليشبه الذين وافقوا على هذا المشروع الجائر كمن نقض العهد واستبدل الآخرة بمتاع الدنيا، وهذا يدل على أن الزيات كان كثيراً ما سيتعين بالقرآن الكريم ويستحضره في ذاكرته الحية عند كتابة مقالاته.

في مقال آخر أجد الزيات يسير على الأسلوب نفسه في كتابة مقالته، فيقوم بانتقاد العلماء ورجال السياسة الذين يتكلمون بالباطل، ورجال الحكم الذين يتصرفون ويحكمون بالظلم، وحتى رجال الدين ممن شاركوهم في الحكم فقد قنعوا باللقب والزي فقط، ورضوا أن يكونوا حواشي لأولي النعمة، وهوامش على صفحة الحياة[٤] موظفاً فيهم قوله تعالى: » إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال «[٥],

ص١٦٣.

(١) - ينظر: التعانق النصي في الخطاب النقدي: نانسي إبراهيم، دار رؤيا للنشر, ٢٠١٤م، ص ٢٤٧.

(٢) - وحي الرسالة: مج ١, ص ٢٤٥.

(٣) - التوبة: ٩.

(٤) - ينظر: وحي الرسالة: ص ٣٤٦.

(٥) - الرعد: ١١.

فهو هنا يدعو رجال الحكم ورجال السياسة أن يلتزموا بتعاليم القرآن الكريم، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر مصداقاً لقوله عز وجل « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ « (١) فالزيات كان كثيراً الإلحاح على رجال السياسة والقادة بأن يلتزموا بالقواعد التي نص عليها القرآن الكريم، لأنه كلما ابتعد المسلمون عن الالتزام بالقرآن وتعاليمه زاد البلاء على تلك الأرض وانتشر الفساد وعم الظلم، فوظف تلك الآيات القرآنية التي أصبحت بمنزلة المعجم اللغوي الذي يستند إليه كذخيرة ثقافية في عملية كتابة المقال، فأجد ثمة تحاورًا

بين معنى الآية ونص المقال، فإن دل على شيء فإنما يدل على حسن التوظيف لتلك المرجعية في النص.

استثمر الزيات مرجعية القرآن الكريم في ذات المحور أيضا، لكونه كاتبًا حاذق الفهم في مشكلات المجتمع المصري والعربي، كان يستند دومًا إلى قدراته العقلية ومرجعيته الدينية، فأبصر ما يعانيه العرب وزعماؤهم من تفرق وانقسام غير مبتعد عن ذاته العربية، كان يدعوهم إلى التشاور وتجديد الوحدة العربية فيقول «اذكروا يا زعماء العرب. . . اذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا، واذكروا إحسان النبي إليكم إذ كنتم اشتاتًا فجمع شتيت شملكم فأقمتم على وحدته ملكًا وسلطانًا»(٢) فالزيات اقتبس ذلك النص من قوله تعالى «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»(٣) فأجد الزيات يعمد دومًا إلى توثيق مقالاته بآيات من القرآن الكريم، لا سيما تلك التي يوجه فيها الخطاب لكبار القادة والزعماء السياسيين، لأن القرآن الكريم يعد النص الديني المقدس الذي يشترك فيه جميع المسلمين، فوظف المرجعية القرآنية في المقالة لتصبح مرجعاً يستند إليه القارئ، وفي خاتمة المقال يدعو زعماء العرب للالتزام بصفات المؤمنين وهي (الاخوة، التشاور، التعاون) مقتبسًا تلك المعاني من قوله تعالى «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) - آل عمران: ١٠٤.
(٢) - وحي الرسالة: مج ٣, ص ١٢.
(٣) - آل عمران: ١٠٣.

إِخْوَةٌ»(١) و»وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ»(٢) و»وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ»(٣) ليكشف للقارئ عن جمال توظيف النص القرآني في المقال وتثبيت الحجة من جهة، وقوة حافظته وحضور الثقافة الدينية لديه من جهة أخرى، فالآيات القرآنية تداخلت مع النص الأدبي ليكون الخطاب أكثر عمقًا وتأثيرًا بالمتلقي بواسطة مفرداته التي ركبها تركيبًا مخصوصًا، وبفعل أسلوبه وعمق مرجعيته، فدخلت اللفظة في تركيب، ثم دخل التركيب في سياق(٤). ظهرت براعة الزيات في استحضاره للمرجعية القرآنية وتوظيفها في مقالاته أثناء حديثه عن مصر ونهضتها منذ زمن توت عنخ آمون، الذي كان يستخدم بوقين أحدهما فضة وهو للحرب، والآخر نحاس وهو للسلم، ثم يشبه انبعاث تلك الأصوات بنفخة إسرافيل في الصور، فيقول «أيها النافخ في صور إسرافيل؟ أهي الراجعة وانصعاق الأحياء. . . أم هي الرادفة وانبعاث الأموات»(٥) ولا شك بأن المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم تحدث عن ذلك في عدة آيات ومواضع، منها قوله تعالى «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»(٦), وقوله تعالى «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ»(٧) لقد وظف الزيات تلك المعاني المأخوذة من آي القرآن الكريم في مقالته لغرض إحياء الهمة في نفوس المصريين واستفزاز مشاعرهم، لأن الراجفة والرادفة التي يعنيهما الزيات هما النهضة في قلوب المصريين الذين سكتوا على الظلم والجور، لقد أحسن الزيات اختيار تلك المعاني، لأنها ذات تماس مباشر مع موضوع المقال ونغمة منسجمة تماماً مع طبيعة موضوعه.

من القضايا السياسية التي ناقشها الزيات ووظف فيها مرجعيته الدينية هي قضية (قانون التشريعات الصحفية) وهو من القوانين التي كانت حكومة الوفد تريد أن تسنها لتقيد به حرية الصحافة، فقوبلت بالمعارضة من بعض الوفديين ونواب البرلمان، فوجه النقد للكبراء الذين

(١) - الحجرات: ١٠.
(٢) - الشورى: ٣٨.
(٣) - المائدة: ٢.
(٤) - ينظر: قراءات اسلوبية في الشعر الحديث: ص ١٧١.
(٥) - وحي الرسالة: مج ١, ص ٣٨.
(٦) - الزمر: ٦٨.
(٧) - النازعات: ٦ - ٧.

يحكمون ولا يعدلون، ويقولون ولا يفعلون، ويأخذون ولا يعطون, [١] فوظف لتنبيههم وإنذارهم قوله تعالى «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا»[٢], مما تقدم استنتج أن الزيات نجح في توظيف مرجعيته الدينية المتمثلة في القرآن الكريم لخدمة مقالاته السياسية.

٢ - المحور الاجتماعي:

إن استثمار النص القرآني في مقالات الزيات، وحضوره القوي فيها، شكّلا مرجعية فكرية وثقافية، سواء على صعيد الاستدلال بها، أو على صعيد الجوانب الفنية والشكلية، فحاول الزيات استغلال تلك المرجعية لمعالجة معظم القضايا الاجتماعية التي تشغل ذهنه آنذاك، لعل إبرزها مشكلة (الفقر) الذي يعد القضية الاجتماعية الأبرز منذ القدم وإلي يومنا هذا، ناقش الزيات تلك القضية، وحاول حلها بالقرآن الكريم، لأن الدين على حد تعبيره هو الطب الوحيد لادواء المجتمع، تحدث عن تلك الظاهرة في عدة مقالات مستخدما فيها مرجعيته الثقافية القرآنية، فوضع لها الحل الأمثل وهو (الزكاة) التي تمحو الفروق وتحقق المساواة، حتى أن الله عز وجل جعل الفقير حقًا معلومًا في مال الغني يؤديه إليه كرهًا أو طوعًا لتتحقق العدالة في المجتمع [٣]، فأجد أن هذا المعنى مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى «والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» [٤] وقوله تعالى «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ»[٥] فالإسلام جعل الزكاة فرضاً وركناً أساسيا واجباً على جميع المسلمين للقضاء على مشكلة الفقر، لأن حاجات الإنسان في الإسلام لا تقتصر على الطعام والشراب واللباس والمسكن، بل تتعداها إلى ما تستقيم به حياته، ويصلح به أمره، ويجعله يعيش في مستوى المعيشة السائد، فلكل فرد في المجتمع الإسلامي حاجات ضرورية تختلف باختلاف الزمان والمكان

فإذا لم تسعفه الظروف مثل المرض أو الشيخوخة أو التعطل عن العمل أو الفقر عن تحقيق المستوى المعيشي المناسب، فإن الزكاة تتكفل بذلك، لذلك يقول الزيات: «وحسبك أن تعلم

(١) - ينظر: وحي الرسالة: مج ٤, ص ٤٠.
(٢) - الاسراء: ١٦.
(٣) - ينظر: وحي الرسالة: مج ٢, ص ١٢.
(٤) - المعارج: ٢٤ - ٢٥.
(٥) - الذاريات: ١٩.

أن آي الصيام في الكتاب أربع، وأي الحج بضع عشرة، وآي الصلاة لا تبلغ الثلاثين، أما آي الزكاة والصدقات فإنها تربى على الخمسين» (١) من ذلك استنتج أن الزيات كان على تواصل مباشر مع مرجعيته الثقافية القرآنية عند مواجهته لأي مشكلة حياتية، وقد أفاض في الحديث عن معالجة الفقر بالزكاة، ويرى بأن إخراج الزكاة في نظامها المفروض وتوزيعها بالعدالة على المحتاجين، يقضي على الفقر، ويشفي النفس من الحقد والبؤس، حتى أنك لا تجد سائلًا في شارع، ولا جائعًا في بيت، ولا جاهلًا في عمل، ويجعل الرحمة والبر من صاحب المال، والرضا والقناعة من صاحب العمل والحكم(٢)، التمس في هذا المقال صدى الكثير من المعاني المقتبسة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى «وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة « (٣)كذلك قوله تعالى «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»(٤) ليؤكد بذلك ضرورة علاج الفقر بالمرجعية الدينية والمعنى القرآني الذي أوصى به الله تعالى وهي (الزكاة) وبهذا تظهر لنا قدرته على توظيف معاني الآيات القرآنية والنص الديني في مقالاته، ليغنيها بالدلالات والأفكار والمعاني القرآنية، فهو يقوم بتهيئة القارئ تهيئة علمية قائمة على مبدأ تعاليم الإسلام، والاحتجاج بآيات القرآن الكريم ومعانيها، هذا الاحتجاج لا يأتي اعتباطًا، وإنما يدل على قدرة انغماس الزيات في القرآن الكريم و التعمق في فهمه، ليستمد من ذلك الصور والمعاني التي تسعفه في عملية الكتابة وفق خاصية التراكم المعرفي والثقافي.

عالج الزيات بمرجعيته القرآنية الكثير من القضايا الاجتماعية، ومنها قضية اللغة العربية، لكونها ذات ارتباط مباشر بنسيج المجتمع الإسلامي وهي الربط الأساس بين أبناء العروبة، لذلك ناقش تلك القضية في أكثر من مقال (٥)، وأكد صلتها بالفكر وخطرها في النهضة وأثرها في الوحدة، فكان يدافع عن اللغة العربية أشرس دفاع، وينتقد أبناء المجتمع العربي الذين يتحدثون بلغات أخرى من دون الحاجة لها في مجتمع لغته الأم عربية، لأن ذلك يؤدي إلى طمس الهوية

(١) - وحي الرسالة: مج ٢ , ص ٣٢٩.
(٢) - ينظر: وحي الرسالة: مج ٣, ص ١٨٧.
(٣) - الانبياء: ٧٣.
(٤) - الحج: ٤١.
(٥) - ينظر: وحي الرسالة: مج ٤, ص ٢٩٤. أيضاً: وحي الرسالة، مج ٤, ص ٣٤, أيضا: وحي الرسالة: مج ٣, ص ١٧٥.

الثقافية للمجتمع العربي، ويجعلها عرضة للاستعمار فيقول «ومادامت أمة محمد روحًا واحدًا بالإسلام، ولسانًا واحدًا بالعربية، فإن استغلالها موقوت وإن طال، وإن استقلالها آت وإن تأخر» (١) فأجد أن الزيات ناقش تلك القضية وهو تحت تأثير مرجعيته الثقافية القرآنية، لأن القرآن الكريم أول من تحدث عن تلك الظاهرة في قوله تعالى «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (٢) وقوله عز وجل «وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا» (٣) وقوله تعالى «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (٤) فالزيات استخدم معاني تلك الآيات القرآنية للدفاع عن اللغة العربية، ويتبين لي أن هذا الاستحضار لآي القرآن الكريم كان مناسبًا للغرض الذي يدعو إليه الزيات، فتلك الاستدعاءات المتكررة لأي القرآن الكريم ومعانيها تدلنا على سعة ثقافة الزيات القرآنية واطلاعه على كتب التفسير.

وظف الزيات مرجعيته القرآنية لمناقشه ظاهرة اجتماعية أخرى، وهي ظاهرة التفاوت الطبقي والعصبية القبلية، انتقد تلك الظاهرة ووصفها بأنها منافية للتعاليم القرآنية, (٥) لأن الإسلام لم يخص بالتكريم لونًا دون لون، ولا طبقة دون طبقة مصداقًا لقوله تعالى «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ « (٦) فالتعصب للون أو الجنس أو الحزب يؤدي إلى الانقسام والضعف, (٧) فتأثير القرآن الكريم يبدو لي جلياً في مقالة الزيات، لأن هذا المعنى ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٨) فالقرآن الكريم نهى عن التفرقة والتعصب، والكاتب وصف الظاهرة بالداء الذي يقضي على وحدة المسلمين فيقول «لو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادئ تصلح الدنيا وتغر الدين، لمكان ذلك أخلق بمن جعلهم الله أمة وسطًا، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر،

(١) - وحي الرسالة: مج ٤, ص ٢٩٤.
(٢) - يوسف: ٢.
(٣) - طه: ١١٣.
(٤) - النحل: ١٠٣.
(٥) - انظر: وحي الرسالة: مج ٤, ص ٧.
(٦) - الإسراء: ٧٠.
(٧) - انظر: وحي الرسالة: مج٢, ص ٢٦٧.
(٨) - الروم: ٣٠: ٣٢.

ويسارعون في الخيرات» (١) يرى الباحث أن هذا المعنى مقتبس من قوله تعالى «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (٢) وقوله تعالى «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (٣) فالقرآن الكريم كان زادًا ثقافيًا مهمًا للكاتب، وظفه لمناقشة عدة قضايا اجتماعية.

٣- المحور الأخلاقي:

سلط الزيات الضوء على بعض القضايا الأخلاقية في المجتمع، مستغلاً بذلك مرجعيته القرآنية لعلاج معظم القضايا التي تشغل ذهنه آنذاك، من تلك القضايا التي عالجها قضية سلوك وتصرفات بعض أفراد المجتمع المصري الحديث، الذين يتصرفون بغرابة لجذب الانتباه، فإذا اجتمعوا في قهوة، أو مشوا في شارع، لفتوا أنظار الناس إليهم بما يفعلوه من حركات، وبما يحدثوه من ضجيج، ومن صفاتهم الحديث بصوت عال، والضحك بطريقة منافية للتعاليم الدينية, (٤) فالقرآن الكريم حث المسلمين على الالتزام بجملة من الآداب تنظم حياتهم الاجتماعية، فعلى المسلم التخلق بها والعمل وفقها، من تلك الآيات القرآنية التي وظفها الزيات لذلك الغرض هي قوله تعالى للعرب الذين كانوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيؤذونه برفع الصوت وجهر القول، فيقول تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (٥) فالقرآن الكريم نهى المسلمين عن ذلك ووضع لهم قواعد وأسس تنظم أخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية، وهذا المعنى الذي تناوله الزيات لم يقتصر على تلك الآية فقط، بل ورد في موضع آخر في القرآن الكريم، جاء ذلك المعنى بوصية لقمان لابنه التي تعتبر من أمهات الحكم، إذ قال لابنه «وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ»(٦) الزيات يقتبس تلك المواضيع من آي القرآن الكريم، ويحث المسلمين على تنظيم حياتهم وفقًا لذلك، فكان أول ما يستدل به ويرجع إليه في جميع مقاصده هو القرآن الكريم، لأنه يعتبر أعلى حجة شرعية مقبوله

(١) - وحي الرسالة: مج ٢, ص ٢٧٦.
(٢) - البقرة: ١٤٣.
(٣) - آل عمران: ١١٠.
(٤) - انظر: وحي الرسالة: مج ٤, ص ٣٤.
(٥) - الحجرات: ٢.
(٦) - لقمان: ١٩.

عند المسلمين وأقوى الحجج تأثيرًا في المخاطب، بل أن إيراده في المقالات يكون أكثر جلبًا واستمالة للقارئ، وتسليمه بالموضوع بيسر وقناعة.

عنى الزيات عناية كبيرة بآيات القرآن الكريم، لذلك أجده يوظف معنى الآية أو المضمون أو الفكرة في مقالاته، ومن تلك التوظيفات في محور الأخلاق أيضًا هي تناول الزيات موضوع صفات المسلمين وأخلاقهم، وتحدث عن أهم صفة في ذات المسلم وهي (السلام). [١] أكدت الشريعة الإسلامية على مفهوم السلام من خلال تحريم وتجريم كافة أشكال الاعتداء على الإنسان وانتهاك حقوقه، فنفس الإنسان مصانة في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية من خلال قوانين كاملة وضعها الله عز وجل لحفظ النفس من الآذى المعنوي والمادي، لذلك وضع الله تحية المسلمين السلام، فالزيات اقتبس ذلك المعنى من قوله تعالى «وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»[٢] فالمخزون الثقافي الديني واضح في مقالات الزيات، فهو يزيد دلالات المقالة وثرائها. من تلك القضايا الأخلاقية التي تناولها الزيات هي قضية الصيام في رمضان، فهو يؤكد بما يمتلكه من خلفية ثقافية دينية على ضرورة الابتعاد عن فعل المحرمات في هذا الشهر الفضيل، فعلى على المسلم أن لا يفتح عينه لفحش، وأذنه للغو، ولا قلبه لخطيئة. [٣] وهذا المعنى مقتبس من قوله تعالى «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ»[٤] فيجب على المؤمن الحقيقي أن يتحلى بصفات عباد الرحمن، ويبتعد عن أنتهاك حرمات الله في هذا الشهر الفضيل، وفي هذا انتقاد للذين يصومون عن الطعام والشراب فقط، من دون الالتزام بتلك الأخلاق التي شرعه االله في كتابه الكريم. ثمة توظيف للمعنى القرآني يوضح به الزيات أن من أخلاق المسلمين طلبهم للعلم في كل زمان ومكان، فتحدث عن طلاب العلم الذين يذهبون إلى شتى بقا ع العالم لطلب العلم، ثم يعودون إلى بلدانهم ينشرون ما اكتسبوا من ثقافة وعلم فيقول «إن نفراً من كل قطر من أقطار الأرض؟ طائفة من شباب الإسلام إلى مصر ليتفقهوا في الدين ويتضلعوا في اللغة، وينذروا

(١) - انظر: وحي الرسالة: مج ١, ص ٤٢٦.
(٢) - الفرقان: ٦٣.
(٣) - انظر: وحي الرسالة: مج ١,ص ٤٠٣. وأيضا: مج ٤ , ص ١٧٠.
(٤) - البقرة: ١٨٥.

قومهم إذا رجعوا إليهم» [١] فيتضح لي أن ذلك المعنى مقتبس من قوله تعالى «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»[٢] فالدراسة ترى بان الكاتب كان يرجع أثناء عملية الكتابة إلى مخزونه الثقافي الديني، ليكون لها صدى عميق في المتلقين ونفوسهم تارة، ويؤكد على أهمية الموضوع تارة أخرى.

٤ - محور اقتباس القصص القرآني:

يستخدم الزيات في هذا المحور الإشارة أو التلميح إلى القصص القرآني، حيث حرص على توظيف تلك المرجعية والإفادة من طاقاتها الفنية والدلالية الكبيرة، لأنها تعزز سبل الإقناع العقلي، وتمتلك تأثيرًا وجدانيًا يغذي المشاعر، ويسمو بالنفس البشرية، فهي سلاح نفسي في إقناع المخالفين عن طريق الجدل والحوار. [٣]

لقد نجح الزيات في استلهام القصص القرآني وتوظيف هذه القصص في مواضيع مقالاته لتغذي النص وتغنيه بالدلالات، فكان ذكيًا في اختياره القصة التي يراها تدعم النص، وكان أكثر ذكاءً بالتلميح إلى القصة دون اللجوء إلى سرد أحداث القصة وتفاصيلها، ليترك بذلك القارئ بحالة من التخيل والتصور، كلاً حسب ثقافته وبراعته في فهم النص، لأن «القصة الواحدة قد يكون فيها اكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذى يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه»[٤] فالكاتب يستدعي القصة التي تتناسب مع طبيعة المقال، كذلك يختار الموضع داخل القصة الذي ليتماشى مع موضوع المقال.

استدعى الزيات القصة القرآنية ووظفها لمعالجة وتوضيح عدة قضايا، فمن تلميحاته للقصة القرآنية لدواعي سياسية قوله «أليس الوعي القومي هو الذي جعل لإنجلترا من جامعة الدول العربية ما جعل لآل فرعون من موسى بن عمران؟ آووه وتبنوه ليكون ظهيرًا للكفر، ونصيرًا للظلم، ووزيرًا

(١) - وحي الرسالة: مج ٢ , ص ٣٠.
(٢) - التوبة: ١٢٢.
(٣) - بنظر: سيكولوجية القصة القرآنية: التهامي نقرة، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر, ١٩٧١م، ص ٢٥.
(٤) - التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي: العراق، دار عمار، ط ٤ , ٢٠٠٦م، ص ٢٨٣.

للاستبداد، فكان لهم نذيرًا من الله، وداعيًا إلى الحق، وبشيرًا بالحرية» [١]اتضح لي أن الزيات بذلك الاستدعاء القصة سيدنا موسى عليه السلام، أراد أن يوضح فكرة دعم إنجلترا لإنشاء جامعة الدول العربية، وكيف أرادوها أن تكون تحت تحكمهم ورايتهم وداعمة لقراراتهم، إلا أنها لم تكن كذلك، فكانت قراراتها مستقلة ورافضة لجميع أشكال التدخل الخارجي، علاوة على ذلك أنها تقف بوجه أي انتهاك غربي بحق العرب، فالزيات يشبه موقف الإنجليز بموقف فرعون الذي تبنى موسى عليه السلام وبعد ذلك كان له ولقومه نذيراً من الله عز وجل، فوظف ذلك الموضع من القصة ليخدم به موضوع المقال، ويؤكد على أهمية النظر وقراءة القصص القرآني وأخذ العبر والدروس منه. من استدعائه للقصص القرآني لأغراض سياسية تخفيه خلف تلك القصص ليوجه النقد إلى أحد أكبر رجال الإقطاع الذين جردتهم ثورة الجيش من الألقاب في يونيو سنة ١٩٥٢م، وانتزعت منهم قانون الإصلاح الزراعي بعد أكتوبر من العام فإنه فيقول «أنا والله شامت بكم يا قارون ! لطالما قرعت سمعك وسمع (الأمير) بزواجر النصح الخالص، ولكن لم تكونا يومئذ تصدقان أن للناس رباً يمهل ولا يهمل» [٢] فوظف قصة قارون وهو واحد من الأقوام التي بعث إليها موسى عليه السلام وقد كان قارون عاصياً لله تعالى جاحداً لنعمه، كما كان متكبراً على غيره ومغرورًا بنفسه بسبب ما أنعم الله عليه من الكنوز والأموال المدخرة، وقد نصحه قومه كما نصح الزيات رجل الإقطاع بألا يفرح بالدنيا فرحًا يشغله عن الآخرة، إلا أنه لم يتعظ، ولم يستطع أن يحمي نفسه من عقاب الله عز وجل، وهذا مشابه لموقف الجيش مع رجل الإقطاع، فكان عقابه بأن خسف الله به وبداره وماله الأرض، فقال تعالى «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ»[٣] بإمكاني القول إن المرجعية الدينية، إضافة إلى ما يمتلكه الزيات من مخزون ثقافي ديني، أسعفته بأن يستعير تلك القصة ويوظفها لعلاج ظاهرة الإقطاع وانتقاد كبار الشخصيات متخفياً خلف القصص القرآني.

اتكأ الزيات على القصص القرآني في أكثر من مقال، ومنها تلك التي يوضح فيها الواقع الاجتماعي والصراع في المجتمع موجود منذ الأزل، فابتلى آدم بابليس، وموسى بالسامري، وعيسى بيهوذا، ومحمد بأبي لهب، حتى إذا طغت قوى الشر وسادت عناصره أسل الله عليهم

(١) - وحي الرسالة: مج ٣ , ص ٨٢.
(٢) - وحي الرسالة ١ مج٤، ص٨١.
(٣) - القصص

طوفان نوح بالماء أو الوباء أو بالنار أو بالدم، فتهمد نارها [١]هنا وظف الكاتب قصصاً عدة ليبين أن الخير والشر متلازمان في كل زمان ومكان، حتى وإن غلبت كفة الظلم فيقوم الله بالقصاص وإقامة العدل، كما حصل مع نوح عليه السلام، عندما كان يدعو قومه لتوحيد وينهاهم عن عبادة الأصنام ويرشدهم إلى طريق الحق «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ»[٢] كذبوه ولم يقبلوا منه فانذرهم بعذاب الله تعالى «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» [٣] فأرسل عليهم الطوفان، وانتصر للمؤمنين فأنجاهم الله تعالى، إذ قال تعالى في كتابه الكريم «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ»[٤] فيجب على الكاتب الاقتداء بتلك القصص، والإكثار من توظيفها في نصوصه، لأنها أحسن القصص على حد تعبير القرآن الكريم» نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ « [٥] فتعتبر تلك القصص زادًا ثقافيًا مهمًا للكتاب والشعراء ينهلون منها الصور، ويستدلون بها في شعرهم وأدبهم، لذا عمد الزيات توظيفها في مقالاته والتلميح إليها لمعالجة كثير من المواضيع في زمنه.

ألمح الزيات في مقال أخر إلى قصة نبي الله قابيل والغراب، ووظفها للتعبير عن إحدى أغرب القصص التي تحصل في المجتمع هي قصة الغراب والطفل [٦]، ذلك الغراب الذي وقع في أزمة في مشتبك الغصون ولم يتركه رفاقه الأوفياء حتى عالج جناحه بعود طويل من الخشب ثم أنطلق معهم، أما الطفل فحاله مأساوي بعد أن وضعته أمه على أحد الأرصفة وتركته وحيدًا ليصبح فيما بعد لقطيًا، فالكاتب أشار لذلك الموقف المقتبس من قصة نبي الله قابيل ليسجل فيه عجز المجتمع من انقاذ الطفل وشبهه بموقف قابيل عندما رأى الغراب وقال «يا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﷺ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» [٧]، فتوظيف القصة القرآنية واستخدام معاني الآيات القرآنية سجل حضورًا بارزًا في أكثر من موضع وأكثر من غرض في مقالات

(١) - أنظر: وحي الرسالة: مج٢، ص ١٢٩.
(٢) - الأعراف: ٥٩.
(٣) - الأعراف: ٥٩.
(٤) - العنكبوت: ١٤ - ١٥.
(٥) - يوسف
(٦) - أنظر: وحي الرسالة: مج٢، ص ٣٦٤.
(٧) - المائدة

الزيات، مما يؤكد أن الزيات كان يسترجع ويستعرض مخزوناته الثقافية الدينية ليعيد تشكيل هذه المخزونات في بناء مقالاته، أو بمعنى أخر تساعده هذه الروافد الثقافية في زيادة المعنى وتوثيقه ونسج لحمة المقال.

٦ - محور الوصف:

وظف الزيات مرجعيته الدينية المتمثلة بالقرآن الكريم في محور الوصف، مستغلاً إياها لوصف جمال الطبيعة التي خلقها الله عز وجل وما تحدثه تلك الطبيعة في النفس البشرية من هدوء وسكينة، وهذا التأثير والتأثر بالقرآن الكريم بدا لي واضحًا في مقالة الزيات التي يقول فيها» إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإن في تجميع النهر، وتكوين الجبل، وتصريف الريح، واثارة البحر. . . » [١] فهذا القول مقتبس من قوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»[٢] فالزيات هنا يكتب النص تحت تأثير أي القرآن الكريم، فاقتبس تلك الآية الدالة على وحدانية الله للتعبير عما يجول في خاطره ومخيلته، لاسيما أن الآيات القرآنية تعطي المعنى المراد وتزيد من قيمة النص الآدبي وثرائه.

(١) - أنظر: وحي الرسالة: مج١، ص ٦.
(٢) - البقرة: ١٦٤.

الخاتمة

تعد مرجعية القرآن الكريم من المرجعيات التي استغلها الزيات ووظفها بغزارة في مقالاته لمعالجة مختلف الموضوعات، مما تقدم أجد أن الكاتب المسلم عليه أن يوظف القرآن الكريم وما يحويه من أيات وقصص في أدبه بأكبر قدر ممكن، ويستفيد من تلك المرجعية الدينية التي ميز بها المسلمين، لاسيما أن الجمهور المسلم أسرع تصديقًا وأكثر اقتناعًا بالخطاب المتضمن الاستشهاد بكلام الله تعالى، لذلك قال الجاحظ «وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن الكريم، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة، وسلس الموقع»[1].

(١) - الاستدلال بالقرآن لكريم: الطيب بن المختار الوازين aluhkah. net/sharia.

قائمة المصادر

أولًا: - القران الكريم

ثانيًا: - المصادر

١. أثر القرآن الكريم في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: ابتسام مرهون الصفار، بغداد، مطبعة اليرموك، ١٩٧٤م.

٢. أثر القرآن في تطور النقد العربي: محمد زغلول سلام تقديم: محمد خلف الله، القاهرة، دار المعارف، د. ط.

٣. إنتاج الدلالة في شعر أمل دنقل: صلاح فضل، القاهرة، مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٠م.

٤. التراث الديني في شعر بدر شاكر السباب: مريم عبد النبي عبد المجيد، العراق، مركز دراسات الخليج العربي، مجلد (٣٧) العدد (١ - ٢)، ٢٠٠٩م.

٥. التعانق النصي في الخطاب النقدي: نانسي إبراهيم، دار رؤيا للنشر, ٢٠١٤م.

٦. التعبير القرآني: فاضل صالح السامرائي: العراق، دار عمار، ط ٤, ٢٠٠٦م.

٧. الزيات صاحب الرسالة: محمد نبيه حجاب، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط١، ١٩٩٨م.

٨. الزيات والرسالة: محمد سيد محمد، الرياض، دار الرفاعي، ط١، ١٩٨٢م.

٩. سلطة النص: عبد الهادي عبد الرحمن، القاهرة، سيتا للنشر، ط١, ١٩٩٨م.

١٠. سيكولوجية القصة القرآنية: التهامي نقرة، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر, ١٩٧١م.

١١. في ضوء الرسالة: أحمد حسن الزيات، مصر، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٣م.

١٢. قانون ديوان الرسائل: أبو القاسم على بن منجب (ابن الصيرفي)، علق عليه علي بهجت، القاهرة، مطبعة الواعظ، الطبعة الأولى، ١٩٠٥م.

١٣. قراءة أسلوبية في الشعر الحديث: محمد عبد المطلب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٩٩٥م.

١٤. قمم أدبية: نعمات أحمد فؤاد، مصر، عالم الكتب، ١٩٩٦م.

١٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ت: محمد محي الدين، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٥م، ط٢.
١٦. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: أحمد مطلوب، العراق، مطبعة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول, ١٩٨٣م.
١٧. معجم المعاني: عبدالعزيز عتيق، بيروت، دار النهضة العربية: ٢٠٠٩م ط١.
١٨. معجم المصطلحات الادبية: سعيد علوش، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥م.
١٩. المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد سيد كبلاني، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٨م.
٢٠. مفهوم النص دراسة في علوم القرآن: نصر حامد أبو زيد، المغرب، المركز الثقافي العربي.
٢١. النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، الكويت، دار القلم، د. ط.
٢٢. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الرازي، تحقيق: نصر الله جاحي، بيروت، دار صادر، ط ١, ٢٠٠٤م.
٢٣. - وحي الرسالة: أحمد حسن الزيات، مصر، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٢م.